# مفاهيم التّناصّية والتّناصّية الضّمنية* في نظريات التّلقّي
# *Les Notions d'intertextualité et d'intratextualité dans les théories de la réception*

**بقلم: كارين مارتل Kareen Martel**

**ترجمة: د. سامية عليوي / جامعة قالمة**

يجب ألاّ نحكم على الكتب واحدا فواحدا. وأعني بذلك: يجب ألاّ ننظر إليها كما لو كانت أشياء مستقلّة. لا يكون الكتاب مكتملا بذاته أبدا، وإذا أردنا أن نفهمه فيجب أن نضعه في علاقة مع كتب أخرى، ليس للكاتب نفسه، ولكن مع كتب كتبها أشخاص آخرون (Poulin : 186.. ، 1988)

حتّى وإن كنت أتّفق مع كلمات "جاك بولين Jacques Poulin" هذه، إلاّ أنّني سأعارضها إلى حدّ ما. يبدو لي الفعل "يجب" الذي يتكرّر ثلاث مرّاتٍ، مُلزِما جدّا، وبطريقة تتناقض مع حقوق القارئ، كتلك التي ذكرها "دانيال بينّاك Daniel Pennac" (1992) بتبرُّمٍ. وأودّ أن أقول بأنّ إقامةَ علاقة للنّصوص فيما بينها بوساطة القارئ، واجبةٌ إلى حدٍّ كبير؛ والقارئ يقتحم دائما نصّا ما مسلّحا بتجارب قرائية قام بتجميعها. يتشكّل النّص نفسه كذلك في علاقة مع غيره من النّصوص؛ هكذا أشارت "جوليا كريستيفا Julia Kristeva" التي أنشأت في السّتينيات من القرن الماضي، مصطلح "التّناصّية intertextualité" « كما عرّفت "جوليا كريستيفا" التّناص، على أنّه أساسٌ لأيّ نصّية، وكذلك، على أنّه طريقة يندمج بها النّص في التّاريخ كممارسة استدلالية محدّدة ». (Lamontagne, 1992: 5).

استوحت المنظِّرة ذلك بقوّة، من أعمال "ميخائيل باختين Mikhaïl Bakhtine" الذي طوّر معنى الحوارية. تتضمّن حوارية "باختين" الأوسعُ من مفهوم التّناصية، مفهومَ "كريستيفا": « فاللّغة بالنّسبة إلى "باختين" وسيطٌ اجتماعي، وجميع

الكلمات تحمل آثارَ المتلفّظين الذين استعملوها سابقا ونواياهم وتنبيرَهم » ( Aron et Viala, 2002, « Dialogisme » ). طوّر كلٌّ من "م. ريفاتير" و"ل. جيني Jenny" و"جينيت Genette" فيما بعد شعريةً للتّناصّية.

اهتمّ "جيني" بالتّغييرات التي يُخضِع لها النّص المركزيُّ نصوصَ التّناص، أمّا "جينيت Genette" فقد طوّر صِنافةَ (1) الأشكال التي يمكن أن تتّخذها العلاقات بين النّصوص، ومن بينها التّناصّية التي يُخصّص لها تعريفا أكثر تقييدا، ليكن « الوجودُ الفعليُّ لنصٍّ ما في آخر » (8: 1982). لكثرة ما دُرست التّناصّية على مستوى الإنتاج، فقد بقيت غالبا منسيةً، وبشكل غريب من ناحية التّلقّي. وأنا أقترح على نفسي إذن في هذه المقالة، أن أقارن تعريفاتِ تصوّر "التّناصّية" وتضميناتها، وتطبيقاتها، كما يقترحها ثلاثة من شِعريّي القراءة وهم: "مايكل ريفاتير M. Riffaterre" و"فولفغانغ إيزر W. Iser" و"أمبرتو إيكو Umberto Eco". يبرَّر اختيار هؤلاء المنظِّرين بسهولة:

كان "ريفاتير" أوّل من نظّر للفكرة التي تحتاج التّناصّية وفقا لها لكي توجد، وهي « أن يتعرّف عليها القارئ كما هي [...] ». (Rabau 2002: 161)

ويُعتبر "إيزر" واحدا من أهمّ المنظّرين لجمالية التّأثير: ( Gorp, 2001 « Réception »)

وتتموضع مساهمات "إيكو Eco" في خطّ "إيزر" (Jouve, 1993: 6)، وأسهمت في الوقت نفسه في تقدّم البحوث في هذا المجال، وولّدت الكثير من الجدل.

آمل من خلال دراسةٍ مقارنة لهذه المقاربات، في تحديدِ نموذجٍ نظريٍّ مشترَكٍ ورسمِ حدودٍ وإمكانياتٍ. سأناقش بعد ذلك، شكلا معيّنا من التّناصّية أهملته شعريّات التّلقّي فضلا عن كافّة المقاربات المنهجيّة، وهي التّناصّية التي تحدث حين يعيد كاتب ما « استخدامَ نمطٍ، أو جزءٍ من النّص الذي يكتبه، أو عندما يوضع مشروعه التّحريري في علاقة مع عملٍ أو أعمالٍ سابقة ( مرجعيات ذاتية، اقتباسات ذاتية ) »( Limat Lettelier, 1998 : 27). سأحاول أن أؤكّد على آثار القراءة التّناصّية

على المستوى الفكري، ولكن على مستوى الانفعال أوّلاً، وهو جانب تجاهلته أيضا نظريات التّلقي من قبل.

أحد إنجازات "مايكل ريفاتير"، بغضّ النّظر عن إشارته إلى كون التّناصية تتطلّب الاعتراف بقارئ ما، هو إقامة تمييز كبير بين التّناصّية والتّناص. وهكذا تكون « التّناصّية هي أن يقوم قارئٌ بتحديد العلاقات بين عملٍ ما وأعمالٍ أخرى سابقة أو لاحقة، هذه الأعمال الأخرى تشكّل تناصّا للعمل الأوّل » :Riffaterre, 1980) .(4. تمنح هذه التّعريفاتُ القارئَ قدرا كبيرا من الحرية.

يختلف التّناص بهذا المفهوم، باختلاف المعابر التي يجمّعها هذا الأخير في ذاكرته، والتّقريبات التي جمعها، وأُمليت عليه عرَضا من ثقافة عميقة نوعا ما، بدلا من حرفيّة النّص. ( Ibid :5)

وعلى الرّغم من مطالبات "ريفاتير" بشعريّة للتّلقي، فإنّ هذا التّأكيد يسمح لـــ "حرفية النّص" بأن تنبلج بوضوح، محافظة على أسبقيّتها على القارئ. وعلاوة على ذلك، إذا كان قارئ ما يمارس تقريباتٍ بين مختلف النّصوص، ألن يكون ذلك سوى إرجاعات؟، ذلك أنّ عنصرا نصّيا ما قاده إلى ذلك دون شكٍّ، بوساطة ترابط الأفكار. وبطبيعة الحال، قد لا تنتج هذه التّناصّية عن رغبة الكاتب، وتبدو ربما غير ضرورية لقراءة "جيّدة" للنّص. وللتّخفيف من حدّةِ الجزءِ الكبير من ذاتيةِ تعريفٍ كهذا لظاهرة التّناص، يقترح "ريفاتير" تمييزَ التّناصّية العشوائية عن التّناصّية الإلزامية. فالأولى، تحدّدها ذاكرة القارئ وثقافته، وهي بذلك متغيّرة و« احتجابها عرضيٌّ لا يؤثّر على المعنى، ولا يعلّق الفهم على أيّة حال » (المرجع نفسه). وأمّا الثّانية، فمستقرّة ومقنعة « لأنّ التّناص يترك أثرا لا يمكن تجاهله في النّص، وثابتا قطعيا يلعب دورا ضروريا في القراءة، ويحكُم فكَّ ترميز الرّسالة » (المرجع نفسه).

فما هو هذا الأثر الذي لا يمكن للقارئ تجاهله إذن ؟. يتعلّق الأمر بصعوبة ما، وبشيء شاذٍّ، وبظلامٍ يصادفه القارئ، يسمّيه "ريفاتير" بـــ "اللاّ نحوي"(2). تبدو لي الفكرة التي يترك التّناص حسبها أثرا داخل النّص، صحيحةً جدّا،

غير أنّ عوامل كثيرة قد تؤدّي إلى سوء الفهم، و« نحن نعلم جميعا، بأنّ القراءة – وليست قراءة النّصوص المشهورة بصعوبتها فقط –، قد تخفق بعيدا عن هذا » (Saint – Gelais 1994: 246 ). يمكن أن يتمّ الخلط أيضا، بين صعوبة النّص، وافتقار صاحبه إلى المهارة (Hotte 2001: 82).

تتعقّد المشكلة عندما يكون النّص ذا طابعٍ سريالِيٍّ أو عبثيٍّ. وبالمثل، ألا يجعل إهمال القارئ أو أيّ عامل آخر، اللاّ نحويَّ غيرَ مفهوم ؟. قد تؤدّي لا نحويّةٌ من غير حلٍّ، – حسب "ريفاتير" –، إلى قراءة معاقة حتما: « [ ...] ستكون ممارسةَ عدمِ توافقٍ، وتمرينًا لفكّ التّرميز، قريبةً من هجائيات القرون الوسطى، تصوِّر تتابعا خطّيا، وجُملا متعاقبةً، بدلا من النّصّ » ( 1979 b: 128). تتطلّب الأمثلة التي قدّمها "ريفاتير" معارفَ دقيقة جدّا، ولا يمكن لعدد كبير الوصول إليها ( Voir l'analyse de « Guitare », 1979 a). تبدو التّناصّية والفهم الجيّد للنّص إذن حصّة المنقّبين، وحتّى هؤلاء ليسوا معصومين من التّفسيرات السّيئة ( Voir l'analyse de « Delfica », 1979 a) . يمكن لهذه الاعتبارات أن تصبح مصدرَ قلقٍ بالنّسبة إلى القارئ المحذَّر نوعا ما، ومن ثمّ العنوانُ الفرعيُّ للفصل الذي خصّصته "ناتالي بيجاي – غرو N.Piégay- Gros" لـــ "ريفاتير" في كتابها المعنون بـــ « إرهاب المرجِعية Le terrorisme de la référence » الذي ذكرت فيه:

يمثّل التّناص إذن، أداةً تقيم المشاركة بين القرّاء العلماء، الذين سيكونون قادرين على التّعرّف على التّناص، و القرّاء العاديّين الذين قد لا يدركون أبدا المقاومة التي يمنحها وجود أثر تناصّي ( 17 ; 1996)

القارئ الأكثر قدرةً على إدراك اللاّ نحوي هو فعلا القارئ المثالي، بمعنى « تجميع التّجربة القرائية لعدد معيّن من القرّاء الحقيقيّين الذين يمدّون الباحثين بمعلومات عن سير قراءتهم » ( « Lecteur » : Gorp, 2001 ). يبدو إذن أنّ قارئا تجريبيا واحدا لن يتمكّن من قراءة متكاملة ومُرضية. على الرّغم من أنّ "ريفاتير" يؤكّد:

يجعل نظامُ اللاّنحو الإجباري، من القراءة قضيّة تقييدية. كلّما استمرّت العيوب النّحوية، علِم القارئ بأنّه تورّط في قراءة مغلوطة [ هذه المرّة أنا من تشير ] وبأنّ

مهمته لم تنتهِ: الحرّية الوحيدة التي تُركت له، هي أن يكتفي بهذا الحلّ للتّبسيط، وبأن يبقى من ناحية النّقص النّحوي في منتصف الطّريق من الهدف-188 : 1983) .189)

يقابل النّقص النّحوي رحِما « يمكن أن تُصنع من الصّور المستخرجة، سواء كانت اقتباسا مستمدّا من نصّ آخر، أم نظاما وصفيا » (Ibid:86) يُبنى النّص من خلالها. للقارئ "دور" في العثور على نقص النّحو هذا. ولتحقيق ذلك، قد لا يقتصر على القراءة الأولى المسمّاة الاستكشافية، والتي ترتكز على تناول المعنى في توافق مع الفكرة « التي تكون اللّغة حسبها مرجعية في هذه المرحلة، تبدو الكلمات وكأنّها تقيم أوّلا علاقات مع الأشياء » (Ibid,16). تسمح القراءة الثّانية المسمّاة الارتجاعية، بالعثور على المدلولية، ولتكن الرّحم البنائية التي يتغيّر النّص انطلاقا منها (Ibid,17). لكي يعثر القارئ على نقص النّحو، ينبغي له أن يحلّ اللاّ نحوية، بمعنى أن يجد التّناصّات. حدّد "ريفاتير" ثلاثة وسائط تعريفية للتّناصّية.

* نصّ يتّجه نظامُ مرجعياته نحو التّناص.

* واحد ( أو عدد ) من التّناصّات [ ... ] [ الذي ] يبقى مستترا، إمّا لأنّه في موضع آخر قانون نصٍّ، وإمّا لأنّه مضمر، وإذا كانت تلك هي الحالة بالنّسبة لشيئين، فإنّ أحدهما يكون فيه التّناص إمّا مفترضا من طرف النّص، وإمّا مرتبطا بالنّص بـــمفسِّر كيفي(3).

* مجاز جازف بقراءة نصّ وشوّه رسالته [...].

لا يمكن إذن، اعتبار الكناية والاقتباس والمحاكاة السّاخرة والتّقليد تناصّياتٍ، لأنّ قراءة التّناص « تركّز على العلاقات بين النّصوص، لا على العلاقات بين المكوّنات النّصيّة الموجودة في نصوص مختلفة »، ( Ibid , 36 – 37 ). ويؤكّد هذا التّمييز الأخير المثير جدّا للاهتمام، فكرةَ أنّ التّناصّية لا تحدث بطريقة دقيقة، ولكنّها تخدم مجموع النّص، كما اقترحها "لوران جيني Laurent Jenny" (1976). لم يعكف "ريفاتير" في دراساته، كما أكّد "جينات" (1982) بغرابة، إلاّ على مقاطع

قصيرة. وبالإضافة إلى ذلك، يبدو لي المعيار الذي تتجلّى التّناصّية بوساطته بلا نحوية ما، قابلا للمناقشة كما بيّنتُ أعلاه، تماما مثل فكرة منح القارئ مهمّةَ حلّ هذا اللاّ نحو، وإلاّ فلن تعدو قراءته أن تكون معاقة. باختصار، يقترح "ريفاتير" « زيادة عن ذلك، طريقة في التّحليل، بروتوكولا لقراءة النّصوص، وبالتّحديد تلك التي تكون ذات طبيعة شعرية، أكثر منها دراسة أداء القراءة التّناصّية ». (Hotte, 2001: 72 ).

ينصبّ اهتمام "إيزر Iser" مثل "ريفاتير" تماما، لا على القارئ التّجريبي، ولكن على قارئ ابتكره النّص هذه المرّة. ويُعزى هذا الاختيار في جزء منه، إلى التّمييز الذي يقيمه "إيزر" بين قطبيْ النّص الأدبي: « القطب الفنّي، ويحيل على النّص الذي أنتجه المؤلّف، في حين يتّصل القطب الجمالي بما يجعله القارئ محسوسا من النّص »( Iser , 1985 : 48). كما وضع "فانسن جوف Vincent Jouve" هذين القطبين في متناول الجميع، حين قال: « هناك إذن دائما بُعدان في القراءة: أحدهما مشترك بالنّسبة إلى كلّ قارئ لأنّ النّص هو الذي يحدّده، والآخر متغيّر إلى ما لا نهاية لأنّه يعتمد على ما يسقطه كلٌّ من نفسه » (عام 1993: 94). يجد القارئ الحقيقي نفسه إذن، في مواجهة بنية نصّية تقترح عليه دورا، فضلا عن قراءة خاصّة. يشكّل هذا التّوتّر بين القارئ الإجباري والدّورِ المقترح، ما يسمّيه "إيزر" « القارئ الضّمني » (1985: 60 - 76).

يصعب إلى حدّ بعيد التّمييز عمليا بين آثار القراءة التي يحدّدها النّص، وآثار تلك التي تكون غير متوقّعة. وبالإضافة إلى ذلك، إذا كان النّص الأدبي نفسه هو الذي يمدّنا بآثار القراءة والتّفسيرات، فإنّ القارئ الحقيقي يجد نفسه في مواجهة كتابةِ قراءةٍ ما. هناك أيضا مكان عند "إيزر" لتفاعل النّص –القارئ، وخاصّة من طرف«البِياضات»، عدم ترابط النّص الذي ينبغي للقارئ إتمامه بتمثيلاتٍ ناشئةٍ عن خياله الخاص(Ibid, 318 –338). يهتمّ "إيزر" – باعتباره أحد أئمّة مدرسة كونستانس، بالطّبع– بالتّلقّي التّاريخي، ممّا ينعكس في مقاربته عن التّناصّية، على الرّغم من أنّ المنظِّر لا يستخدم المصطلح.

[...]يعرض مفهوم دليل النّص المستخدَم من قِبل ممثّلي هذا التّوجّه في البحث

[ جمالية التّلقّي ] تماثلاتٍ هامّة مع معنى التّناصّية، كما تراءى عبر هذه التّعريفات المختلفة. (Vultur,1986 : 106).

يتضمّن الدّليل – الذي يتوافق عند "إيزر"، مع الاتّفاقيات المدرجة في النّص لإنشاء ألفةٍ ووضعٍ مشترك بين النّص والقارئ، ويكون ضروريّا لـــلمعرفة المعمّقة وللقراءة –، نصوصًا سابقة أيضا، حسب المعايير الاجتماعية والتّاريخية أو حتّى مجموع الواقع « غير الجمالي » (Iser , 1979 : 282). أنا لن أهتمّ هنا إلاّ بدليل النّصوص. فإذا كان يُستخدم في البداية في خلق أرضية مشتركة بين النّص وقارئه، فإنّ الدّليل الأدبي يملأ وظائف أخرى:

تنفتح الإشارةُ إلى كتاباتٍ سابقة، دون شكّ، على أفقٍ معروف، ولكنّها لا تُستهلك في هذا الاستحضار؛ وتكون عودة كهذه، أيضاً تمثّلاً لحلول لن يُشار إليها هنا، ولكنّها لا تبيّن على الإطلاق الاتّجاه الذي ينبغي اتّباعه للبحث عمّا يمنحه النّص للاستشهاد. تصبح العناصر الأدبية المتكرّرة هكذا غير نصّية، الشّيء الذي سيكون كافيا أيضا لتدمير أيّ إمكانية للتّفكير في استعادتها في مصطلحات إنتاجٍ خالص، يجعل التّكرار العنصر المتكرّر واقعيا، وينطلق في بيئة جديدة. أوّل نتيجة لهذه الواقعية هي تحرير الإمكانيات الدّلالية التي كانت مضمَرة أو أبطلت في عناصر النّص المتكرّرة، بما أنّها تجعلها تتخفّف من تبعيّتها للإمكانيات الدّلالية المهيمنة في سياقها السّابق. (Ibid , 292)

يؤكّد "إيزر" إذن، على كون الدّليل الأدبي المذكور قد تحوّل، ولم يتمّ تكراره فحسب. تنبع هذه الفكرة من تصوّر "إيزر" للأدب، حيث تُقدِّم النّصوص حسبه إجاباتٍ خالدةً عن الوضع البشري انطلاقا من عيوبِ أنماطِ الإدراكِ في كلِّ عصر، بمعنى مجموع المعايير الاجتماعية، والقِيم والمرجعيات الثّقافية التي يأخذها النّص بعين الاعتبار، حتّى وإن كان يعتبر بأنّ دليلَ النّصّ لا يتوافق مع دليل القارئ، وبأنّه انطلاقا من هذا الاعتبار، يقترح نوعين من القراءة، إمّا أن تكون مشارِكةً إذا كان النّص معاصرا لقراءته، وإمّا تأمّليةً إذا لم يكن كذلك (1979: 291)، يجهل "إيزر"

إمكانية ألاّ يتعرّف القارئ على التّناص. ذلك أنّ المنظِّر يعتبر بأنّ النّص يعرض استراتيجيات توجّه القارئ وتزوّده بالعناصر الضّرورية لفكّ ترميز "الإجابة" التي يقدّمها النّص:

[...] ينظّم الدّليل وصولَ القارئ إلى النّص، وبالتّالي إلى حدود إشكاليات الأنظمة المخزونة في الدّليل. يشكّل الدّليل هكذا، بنية دلالية منظّمة، تقوم القراءة بحملها إلى مستواها الأمثل.

[...]على القارئ، وهو يقوم بتحديث النّص، أن يكتشف نظامَ تكافؤِ عناصرِ الدّليل: غير أنّ المعنى الذي يبرز هكذا، ليس من أيّ طبيعة. [...] يكون نظام التّكافؤ غيرَ محدّدٍ، في حالة ما إذا كان غير مَصوغٍ فقط: إذا رفعنا البنى المتوفّرة إلى مستواها الأمثل، سننتهي حتما بالوصول. (Ibid , 297)

لا زال النّص يحتفظ بحضوره هنا إذن، ولن يحظى القارئ الذي لا يستوفي مهمته، إلاّ بفهم جزئي للنّص. ويتموضع "أمبيرتو إيكو" في خطّ "ريفاتير" و"إيزر". أوّلاً، ليس القارئ الذي يشير إليه هو القارئ التّجريبي، ولكن بالأحرى بناء النّص والكاتب معا:

كلّ الضّمائر لا تعيّن قارئا تجريبيا عاديا، على الإطلاق [...]: إنّها تمثّل استراتيجيات نصّية خالصة. يكون تدخّلُ المتكّلم مكمّلا لنشاطِ القارئِ النّموذجي الذي لا يتحدّد تصميمه الفكريُّ إلاّ بنوع العمليات التّفسيرية التي يُفترض أن ينجزها: التّعرف على أوجه التّشابه، وأخذ بعض الألعاب بعين الاعتبار [...]. القارئ النّموذجي هو مجموعة من شروط النّجاح أو السّعادة (شروط السّعادة felicity conditions)، الثّابتة نصّيا، والتي يجب أن تتحقّق لكي يتمّ تحديث النّص بالكامل في محتواه الكامن. (Eco , 1985 : 76 - 77)

يضعنا "إيكو" هنا في مواجهةٍ مع مفارقة مزدوجة: يبدو القارئ الذي يؤخذ بعين الاعتبار في شعرية التّلقّي، كمنتَج نصّي، كلّما كان بارعا في القيام بعمليات فكرية، كلّما زادت تجسيميةُ هذا القارئ المثالي، أو الاستراتيجيةُ النّصّية، إمكانيةَ الخلط مع القارئ الحقيقي، التّجريبي. إذا كان النّص يتوقّع قارئا مثاليا، فلا ينبغي أن يكون هناك مجازفة سوء تفسير أو تفسير زائد، ولكنّ الخطر يبقى موجودا. ينبغي للقارئ المتعاوِن أن يتجنّب الانزلاقات، وأن يعمل على « تحديث النّصّ بالطّريقة التي رآها، هو، المؤلف»(Ibid : 68 ) . يتوجّب على القارئ نموذجيا كان أم تجريبيا أن يحترم النّص الذي يقتحمه، وأن يخضع «لحركات القراءة التي يفرضها»(Ibid,8 ).

حتّى وإن لم تكن التّناصّية موضوعَ تعريف في « القارئ في الحكاية Lector in fabula »، فإنّ المنظِّر يرى بأنّه لا يمكن قراءة النّص إلاّ في علاقته مع نصوص أخرى(Ibid , 101).

يعكف "إيكو" على ما يشكّل بالنّسبة إليه شكلا خاصّا من التّناصّية، ليكن السّيناريو الذي عرّفه على أنّه « نصٌّ ظاهريٌّ أو قصّة مكثّفة »(Ibid , 100 ). تنتمي السّيناريوهات – التي يمكن أن تكون قواعدَ فنٍّ على سبيل المثال، أو متتالياتِ أفعالٍ متّفقٍ عليها –، إلى الكلام المعاد: « المكتسبات محدّدة جدّا: ينبغي أن تكون الطّورطة بالكريمة [...]، ينبغي أن تتحطّم على وجه الهدف [...] »(Ibid, 103 ). يمكن أن تنشئ هذه السّيناريوهاتُ توقّعاتٍ عند القارئ الذي يحاول التّنبؤَ بـــنتيجة القراءة؛ سواء كانت هذه السّيناريوهات مخيّبة للآمال أم زائدة عن الحدّ. لا تحيل هذه السّيناريوهات – مثلها مثل سيناريو طورطة الكريمة – على النّصوص الأدبية فحسب، ولكن على مجموع ما يسمّيه "إيكو" مهاراتِ القارئ الموسوعية. لا تقيم السّيناريوهات الرّوابط مع عمل معيّن، – وإن كان داخل الحقل الأدبي –، ولكن مع مجموعة من الأعمال التي يوجد فيها السّيناريو المقصود. ويشمل مصطلح التّناصّية عند "إيكو" إذن، الكثير من الظّواهر دون تحيّز.

تختلف مقاربة التّناصّية كما رأينا، بين "ريفاتير" و"إيزر" و"إيكو". ومع ذلك، لا يهتمّ هذا الاختلاف كثيرا بتعارض أفكارهم، بل بالأحرى بكون نظرتهم

تنصبّ على مظاهر مختلفة التّناصّية. اهتمّ "ريفاتير" بالكيفية التي تنكشف بها التّناصّية للقارئ بصورة أكبر، بينما حوّل "إيزر" اهتمامه نحو التّلقّي الخارجي، في حين عكف "إيكو" على شكل معيّن يعتبره من التّناصّية، ولتكن السّيناريوهات. غير أنّه يمكن إقامة عدّة خطوط توازٍ بين نظريّتهم، وتقديم نظرة عامّة عن التّناصّية داخل نظريات التّلقّي. يؤكّد ثلاثتهم أوّلا، وكلٌّ على طريقته، بأنّ التّناصّية بحاجة لأن يعترف بها قارئ ما، وبأنّ هذا القارئ مجبر على امتلاك متاعٍ ثقافيٍّ معيّن أو مهاراتٍ موسوعية –حسب تعبير "إيكو"–، ليحقّق هذا الاعتراف.

يستدعي المنظّرون الثّلاثة – لتجنّب أن تكون قراءة التّناص كلّها في مقطورة قارئ تجريبي قد يبدو ذا كفاءة –، إمّا قارئا امتلك التّجربة القرائية لمجموعة من القُرّاء، أو القارئ المثالي، وإمّا بُنى نصّية، أو القارئان الضّمني والنّموذجي. كما يسمح تصوّرهم للنّصّ على أنّه معلَم، بأن يلعب فيه القارئ الدّور الذي أُسند إليه، بتعطيل إمكانية ألاّ يدرك القارئ أثر التّناصّية. وفي هذا الصّدد، تعرض كتاباتهم تمثُّلاتٍ مدهشة: يؤكّد "ريفاتير" على أنّه « يتمّ بناء النّص الأدبي بطريقة يمكنه أن يتحكّم بها في فكّ رموزه الخاصّة ». (11a : 1979 )؛ ويرى "إيزر" أنّ النّص يحدّد القراءة التي تنتعش من القطب الفنّي؛ و يلحّ "إيكو" على أنّ النص يتطلّب حركاتٍ قرائية.

غير أنّه إذا كانت كلّ قراءة بالضّرورة عملا يمارس على نصّ ما؛ فلأنّ وضوحَ هذا الأخير لا يمكن أن يستند فقط على العبارات التي تكوّنه Saint – Gelais (.34 :1994 ). يتّفق "ريفاتير" و"إيزر" أيضا على القول بأنّ عناصر التّناص التي وضعنا أيدينا عليها تتحوّل ولا تتكرّر ببساطة، الشّيء الذي يبدو لي صحيحا تماما.

إذا بدوت مصرّةً على نقاط ضعف النّظريّات التي تعرّضتُ لها، فلم يكن ذلك سوى محاولة منّي لوضع تعريف أفضل لقراءة التّناص. ومن بين العناصر المشتركة المذكورة، تبدو الفكرة المؤسِّسة التي ينبغي أن تكون التّناصّية حسبها موضع اعتراف القارئ، وثيقةَ الصِّلة بالموضوع. ولا أقبل أبدا فكرة أن يتحكّم النّص في القراءة بصفة كلّية تقريبا، دون أن أمنح القارئ كامل الحرّية. ومع ذلك، فإنّ وجود علاماتٍ نصّية لا يمكن إنكاره، لأنّ جميع الأفكار التي تؤدّي إلى قراءة التّناص ينبغي أن تكون لها نقطةُ

انطلاقٍ ودعامةٌ في النّص؛ ليس بمقدار نوع الآثار ( اقتباسات، إشارات، إلخ ) التي لا تكمن في اللاّ نحوية بالضّرورة، وتحدّد إذا ما كان الأمر يتعلّق بالتّناصّية أم لا، بل بالأحرى نوع القراءة التي تثيرها. في حين أنّ الاقتباس لوحده لا ينشئ دون شكّ غير موازاة مؤقّتة بين النّص وتناصّه، ومن المرجّح أن تؤدّي اقتباساتُ تناصٍّ كثيرة، وحتّى اقتباسٌ واحدٌ أو أكثر مجتمعة مع أنواع أخرى من العلامات النّصية، إلى قراءة التّناص الذي [...] يكتمل حين يعيّن القارئ علاقة نموذجية بين نصّين أو أكثر. هذه العلاقة يمكن أن تعيّن بمصطلح التّناصّية، شريطة أن يكون المصطلح مفهوما حسب معناه العملي الدّقيق: إنّه يشير إذن إلى العلاقات بين نصّيْن في مستوى بنيتيهما السّردية العامّة. ( Hotte:2001, 82)

ولكنّني أتّفق مع "ريفاتير" و"إيزر" للقول بأنّ عناصرَ التّناص التي ستؤخذ بعين الاعتبار في النّص كما في قراءة التّناص، ستتحوّلّ على المستوى الشّكلي أو الدّلالي.

لا تقتحم شعريات التّلقّي هذه، فضلا عن مقارباتٍ منهجية كثيرة أخرى، هذه التّناصّية الخاصّة التي تكمن في وضع عملٍ في علاقة ليس مع نصوص كتّاب آخرين، ولكن مع النّصوص التي كتبتها يدٌ واحدة كما تقترحها شخصية "جاك بولين Jacques Poulin". لِمَ هذا الصّمت ؟ هل سيُعزى ذلك إلى موت المؤلّف التي أعلنها "رولان بارت Roland Barthes" على الخصوص في السّتينيات؟. سيتمّ إذن اقتحام كلّ رواية من روايات "غابريال روي Gabrielle Roy" – مثلا – بالطّريقة نفسها التي سنقتحم بها روايات كتبها كتّاب مختلفون. وهل – بدلاً من ذلك– لأنّ مجموع كتاباتِ مؤلّفٍ واحد، تُعتبر نصّا كبيرا مشكّلا عملا واحدا؟ تصبح قراءة التّناص لنصوص الكاتب نفسه إذن خمولا. ولعلّ بعض النقّاد والمنظّرين يعتبرون ببساطة أنّ التّناصّية بين كتب المؤلّف نفسه أو مؤلّفين مختلفين تؤثّر بالطّريقة نفسها في مجال القراءة؟ يبدو لي ذلك من الخطأ، وهذا ما سوف نراه في تطوّراتٍ لاحقة.

وعلى الرّغم من أنّه لم تُبذل أيّه دراسة منهجية للتّناصّية بين أعمال كاتب واحد كما يبدو لي، إلاّ أنّ بعض المنظّرين قد أكّدوا نوعا ما، على ما يميّز الظّاهرة.

يذكر "جان ريكاردو Jean Ricardou" هذه الظّاهرة في معبرٍ ضمن مقالة "فكرة الأدب اليوم" (1972)، ولكنّنا نجد توضيحا أكبر لأفكاره حول هذا الموضوع في المؤلّف « كلود سيمون Claude Simon ». وهو تحليل، ونظرية تدرك من ندوة نُظِّمت في سيريزي Cerisy. لا يسجَّل "ريكاردو" – على الرّغم من ذلك – في شعرية للتّلقّي؛ ولكنّه يهتمّ بالأحرى بإنتاج النّص. يحوّل النّص المكتوب – حسب ريكاردو – ناسخَ اليد الذي يتوافق مع أحد أشكال المؤلّف المثالي أو الوضع البياني. سيكون لتحوّلات ناسخ اليد آثار على النّصوص التّالية، وسيكون للنصوص التّالية آثار على ناسخ اليد. ومع ذلك، فإنّ النّصوص تُكتب أيضاً في علاقتها مع النّصوص المسجّلة بالاسم نفسه، وذلك بطريقة محدّدة. لن يُعدّ كلود سيمون Claude Simon مؤلّفا، ولكن كاتبا منتجا للنّصوص في علاقتها مع النّصوص التي وقّعها، بمعنى كناسخ يدٍ واقعٍ في مشاكل التّناصية المقيّدة [...] . التّناصّية المقيّدة سلسلة من التّحوّلات. وإذا تجاهلنا – بغية التّبسيط – سمةَ التقدّم المستمرّ، فسيكون بإمكاننا أن نكتب: يحوّل النّص ( أ ) إنتاجَ ناسخ اليد ( أ )، إلى ناسخ اليد ( ب )، منتجِ النّص ( ب )، وهكذا دواليك (Ricardou, 1975: 11 – 12) .

وعلى الرّغم من فوائد هذه النّظرية الكثيرة، يبدو نهج "ريكاردو" قليلَ الصّلة بإطار بحثنا الذي يهتمّ بالقراءة أكثر من اهتمامه بالكتابة. يتموقع مقال "براين.ت. فيتش Brian T. Fitich" المعنون بـــ « التّناصّية الضّمنية، والتّناصّية، والتّفاعل اللّساني عند بيكيت، إشكالية التّرجمة الذّاتية: Intra – intertextualité, interlinguistique de Beckett ; la Problématique de la traduction de soi »، بدوره على مفترق الطّرق بين الإنتاج والتّلقّي، بما أنّه يعكف على ظاهرة الكتّاب الذين يترجمون أعمالهم بأنفسهم. وذلك يجعل الكاتب مبدعا وقارئا في الوقت نفسه. وبما أنّ ذلك مجال بحثه، فقد تساءل "فيتش" بالطّبع، عن التّرجمة أكثر من تساؤله عن التّناصّية. في حين تبدو لي إحدى الأفكار التي تقدّم بها "فيتش" مهمّة بوجه خاص:

على المستوى الدّقيق للنّصوص كنصوص، هناك مجموعة من لهوِ علاقاتٍ وتفاعلاتٍ يمكن أن يتمّ من خلالها لنصوص كاتب ما أن تفسّر ذاتَها، أي، دون تدخّل كاتبها إن جاز القول، سواء أراد هذا الأخير ذلك أم لا، وذلك لمجرّد تعايشها [...]. بهذا المعنى الشّديد الخصوصية، يفسَّر كلُّ نصٍّ بعدوى – لا مفرّ منها – ( أو إذا شئنا، بفعل ترابط الأفكار وحدها على مستوى التّلقي ) كلَّ النّصوص التي تحيط به، ومن هنا يؤوّلها [...] (1983: 93)

وهذا يعني أنّ القارئ، – بما أنّه هو الذي ينشّط في الواقع « لعبة العلاقات والتّفاعلات » هذه بين النّصوص، ويجعلها ممكنةً حين يقتحم كتابا كتبه مؤلّف كان قد قرأ له عملا آخر من قبل، ويقيم صلاتٍ بين النّصوص ويقارنها –، يكون منتبها لما يمكن أن يكون تفسيرا أو إشارةً إلى النّصّ الآخر. ولكن يبدو لي قبل كلّ شيء، أنّ توضيحاتٍ عن المصطلحات أكثرُ من ضرورية، بما أنّه – كما رأينا – حتّى وإن كان البحث في هذا الشّكل الخاصّ من التّناصّية الذي يقيم الجسور بين نصوصِ الكاتبِ نفسه يتقدّم بخطى وئيدة، فإنّ عدّة مصطلحات وعبارات، قد أبدت إعجابها به من قبل.

اختار "جان ريكاردو" عبارة التّناصّية المقيّدة. لن أستعيد هذا المفهوم لصالحي، لسببين اثنين: أوّلاً، لأنّ المؤهّل المقيّد يمتلك دلالاتٍ محقّرة، كما لو كان هذا الشّكل الخاصّ من التّناصّية أقلّ أهمية من حيث النّوعية أو الكمية. ثم، أنّ مصطلح "المقيّد" لا يقدّم أيّة إشارة عن نوع التّناصّية المقصودة. في هذا العرض، يبدو لي مصطلح التّناصّية الضّمنية أكثر كشفا عن طبيعة نوعِ التّناصّية المشار إليها. ومع ذلك، فإنّ أداة التّصدير ( intra ) يمكن أن تعني في الوقت نفسه تناصّيّة داخل سياق ما بالنّظر إلى سياق الكاتب نفسه، كما هو الشّأن عند "فيتش"، أو أيضا داخل النّصّ الواحد نفسه كما هو الشّأن عند "ريكاردو". غير أنّه يبدو لي أنّ هذا المعنى الأخير ينتعش أكثر بتوريطٍ نسبيٍّ وثيق الصّلة بالموضوع.

ونظرا لغموض مصطلح التّناصّية، فإنّ عبارة التّناصّية الضّمنية التي تكتفي بذاتها، تُعتبر ملغاةً. وعلى الرّغم من كونها أكثر دقّة، إلاّ أنّها لا تخلو من عيبِ إقامة

الخلاف بين أسبقيةِ صاحب الكتاب على ظاهرة التّناص، وذلك دون الإشارة إلى ما يسمّيه المنظّرون النّاطقون باللّغة الإنجليزية auctorial meaning. لن تكون هذه الدّلالات دون أهمّية في إطار شعريةٍ للقراءة. تبدو تسمية التّناصّية الضّمنية إذن الأكثر نفعا: إنّها مختصرة، وإخبارية و تمّ تداولها من قبل.

إذا لم تثر التّناصّية حتى الآن، إلاّ القليل من التّساؤلات النّظرية، فإنّ المتعة التي تحدثها عند القارئ تُطرح بانتظامٍ في البداية:

مع أنّه يحدث لنا، نحن [القرّاء] كما بالنّسبة لأيّ مسافر، بأن نحبّ، بقدر متعة الاكتشاف، متعةَ الاعتراف: ليست فرحة أن نجد أنفسنا على أرض معروفة، بقدر ما نجد من راحة، بل بقدر ما نشعر بهذا الذي سأسمّيه – في غياب مصطلحٍ صحيحٍ –، حداثةَ المألوف، حين نعود إلى مكان زرناه من قبلُ، حتّى وإن كان المكان نفسه، إلاّ أنّه يبدو لنا قد تغيّر قليلا [...]. (Ricard, 1974 : 97 ).

وبالتّأكيد، فإنّ التّناصّية توفّر متعة أيضا، لكنّ المنظّرين يطؤون في العمل الفكري أكثر من الأوضاع العاطفية التي تثيرها. وعلى الرّغم من ذلك –كما ذكر "جيل تيريان Guilles Thérien"–، فإنّ « فعل القراءة يُلزم انفعال كلّ واحدٍ ». يبني القارئ خلال سيرورة القراءة وضعه النّفسي والعاطفي المستمدّ من ذاكرته الخاصّة به ومن لا وعيه.

غياب مثل هذا البناء في الحقل الأدبي، يجعل الكتاب يقع من اليدين، لأنّه إذا كان لـــ « لذّة النّص » أيّ معنى، فسيكون ذلك بالتّأكيد، في هذا الإعداد الشّخصي الحميم، الذي يوفّر الحدّ الأدنى من الارتياح. (المرجع نفسه.: 74)

وهذا يعني القول بأهمية الانفعال كلّه. حتّى وإن تعلّق الأمر ببداهة ما، فأعتقد أنّه من الضّروري تذكّر ذلك، لأنّ الانفعال المرتبط بالقراءة يبدو متهاوَنا فيه

داخل نظريات الأدب كما في شعريات التّلقّي. ما أهدف إليه هنا، ليس أبدا إدراك المشاعر الشّخصية المعاشة خلال القراءات التّناصّية الضّمنية أو حتى التّناصّات عند قرّاء محدّدين، ولكن بالأحرى تسليط الضّوء على الآثار المحتملة لانفعال كافّة القرّاء. يجب ألاّ ننسى أوّلاً، أنّ المشاركة العاطفية والعقلانية متداخلة وغير قابلة للتجزئة. وكما ذكرت سابقا، إذا لم تكن المتعة في الموعد، فسيكون الرّهان قويّا بأنّ هذا النّقص سيجعل « الكتاب يقع من بين يدي » القارئ. وعلاوة على ذلك، إذا كان الأمر يتعلّق بقراءة إجبارية، فإنّه يتوجّب على القارئ أن يستمرّ في فعل القراءة، وقد تنشأ المتعة من العمل الفكري النّاجم عن اكتشاف التّناصّية أو التّناصّية الضّمنية، على سبيل المثال. تشكّل المتعة الفكرية واحدة من الطّرق التي يمكن للقارئ أن يتأثّر فيها بالتّناصّية أو التّناصّية الضّمنية. فما هي الإمكانيات الأخرى إذن؟

يمكن لشكلٍ أوّل أن يحدُث، حين يُحدّد القارئ وجودَ ظاهرة التّناص بوساطة إشاراتٍ نصّية، ولكنّه لا يستطيع تحديد التّناص المطلوب. يمكنه بالطّبع أن يستجيب دون مبالاة، ولكنّ عدم تحديد التّناص يمكن بالمثل أن يثير مشاعر عامّة مثل: الإحباط وعدم الاهتمام والانطباع بالإهمال أو الفجوة الثّقافية. يمكن للقارئ أيضاً أن يستعيض عن ذلك، معزِّزا فكرة أنّ هذا عمل غير ذي بال. في حالة ثانية، يمكن أن يتسبّب في ردود الفعل هذه تناصٌّ معلوم، لم يُقرأ من قبل أبدا. يمكننا إذن أن نتبصّر عند القارئ، رغبةً في قراءة النّص المطلوب. تحدث حالة ثالثة من الأشكال، عندما يتمّ التّعرّف على التّناص وقراءته بالفعل. حتّى وإن كانت التّناصّية تقتصر في نهجنا على علاقات النّصوص ببعضها، ولا تدمج لا هذه مع أعمال فنّية تنتمي إلى نُظُم أخرى، ولا تلك مع حقائق أخرى « جماليات زائدة »، يُبرز تحليل "كريستين جينين Christine Genin" أيضاً بعضَ الآثار التي يمكن لظاهرة التّناص أن تسبّبه للقارئ حين يكون النّص قد قرئ من قبل:

وكانت مكافأة القارئ المجِدّ عن هذه المشاركة بالتّأكيد، وخاصّة عن المشاعر، بملحقٍ للمعنى، [...] الاعتراف بـــالتّناص ساري المفعول في الواقع، وهو مكافأةُ ثقافةٍ

عامةٍ مُرضيةٍ بالنّسبة إلى القارئ [...].كما يسهم هذا الاعتراف أيضا بالقراءة المؤثّرة، لأنّ التّذكير، وإعادة استدعاء المشاعر التي نحسّها عند قراءة نصوص أخرى، أو عند تأمّل لوحاتٍ أخرى، يُحدث موجة من العاطفة عند القراءة الآنية. (1997: 350)

وبالإضافة إلى الافتخار بأنّنا قادرون على التّعرف على التّناص، والتّذكير بالمشاعر النّاجمة عن هذا الاعتراف، قد يشعر القارئ بأنّه شريك للكاتب الذي يتقاسم معه خلفيةً معرفية، وعلمًا، وعناصرَ ثقافية. تبدو هذه الشّراكة أكثر قوّة في الحالة الرّابعة من الشّكل، ليكن حين يخصَّص الــتّناص للمؤلّف نفسه. يشكّل القرّاء الأوفياء على نحوٍ ما، حلقةً مفضّلةً تكافئ المواظبين عليها أعينٌ متواطئة. وبما أنّ القارئ يشعر بقيمته وبأنّه معترف به، فقد يبدو خيّرا أكثر بالنّسبة إلى العمل الذي يخضعه لعينه النّاقدة. كون القارئ خيّرا، فذلك نابع دون شكّ من الانطباع بالألفة، وبحضور عالَم مغلق تسهم التّناصّية في إنشائه:

إلاّ أنّ لهذه الطّريقة في الرّجوع إلى إبداعاته الخاصّة، وبناء أنواع من الجسور بين مجموع كتبه [...] تأثيرٌ في الكشف عن إنتاج الكاتب ككلٍّ موحّد [...]. وبالفعل، فإنّ هذه الانسجامات الدّاخلية تمنح مجموعَ الأعمال مظهرَ نظامٍ مترابط.[.. . ] (ريكارد 1974: 98 – 99)

إغراء الألفة قوي جدّا، حتى عند المختصّين في الأدب: « أجريتُ قراءة لروايته الأخيرة بانفعالِ من يعثر على شخص عزيز بعد غياب طويل: محموما لفكرة التّعرف على الكون[...] » ( سافار الإيطالي.(L'Italien- Savard, 2003: 24). استولت الآداب المسمّاة "شعبية" على هذا الانجذاب تماما، ومنه جاءت سلسلة الأعمال. تؤكّد هذه الرّغبة في استعادة عالم مألوف، أفقَ انتظارٍ خاصٍّ يتطوّر عند القارئ في مواجهة كتابات المؤلّف نفسه.

ليس القارئ بريئا تماما وساذجا أمام كتابٍ ما: لقد قرأ كتبا أخرى، أو قُرئ له، أو رُوِيَت له قصصٌ. وينطبق ذلك بصفة خاصّة على القارئ الذي يتهيّأ لقراءة نصٍّ للكاتب نفسه الذي كان قد قرأ له من قبل:

من المستحيل، النّظر إلى العمل الذي نحن بصدد قراءته بمعزل عن النّصوص الأخرى، وبكلّ براءة، لأنّنا نبحث فيه زيادة عن الحداثة، عن استدعاء النّصوص السّابقة، بمعنى تأكيد معرفتنا بالكاتب أو إنكارها أو تعميقها. أن نقرأ كتابه الأخير، فهو بمثابة إعادة قراءة كتبه السّابقة أيضا، بما أنّ اهتمامنا ينصبّ – علاوة على العمل الخاصّ – على عالَم الكاتب عموما [...]. (ريكارد 1974: 97 - 98)

بما أنّ قراءات أعمال الكاتب السّابقة موضع تساؤلٍ منذ المناص، فإنّه بإمكان القارئ مع أدنى علامة نصّية أن يقيم علاقات تناصّية ضمنية. التّناص مستعدّ، لدرجةٍ يُحتمل معها أن يجعل القارئ أكثر حذرا، حسّاسا للإشارات التّناصّية المضمرة. يمكن لبعض العلامات الأقلّ عددا والأكثر ضمورا من تلك التي تُقحم في قراءةٍ تناصّية، أن تقود بالتأكيد، إلى قراءة تناصّية ضمنية بسرعة وسهولة. سأبيّن أيضا أنّ القارئ يأخذ المزيد من العناصر بعين الاعتبار في روابط التّناصّية الضّمنية التي ينسجها أكثر ممّا هو الشّأن في الرّوابط التّناصّية. ففي « عينا ميستاسيني الزّرقاوين Les yeux bleus de Mistassini » (2001) على سبيل المثال، لـــ " جاك بولين Jacques Poulin"، تُدعى الشّخصية الرئيسية "جيميJimmy "، تماما مثلما هو الشّأن في الرّواية الرّمز للكاتب نفسه (1969).

كقارئة، لا أريد أن أمنح هذه الشّخصية الجديدة سماتِ شخصيةِ الرّوايةِ الأخرى فحسب، بل ماضيا يمكن أن تكون الرّواية السّابقة قد شكّلته كذلك. ستريح بعض العلامات قراءتي في وقت لاحق. وبطبيعة الحال، لو لم تكن هناك إشارات أخرى، لتركتُ هذا الطّريق دون شكّ. ينبغي بالتّأكيد، لكي تكون هناك قراءة تناصّية أو حتّى تنبُّؤ* بسيط إلى ذلك، في الرّواية التي تحمل فيها شخصيةٌ اسمَ شخصيةٍ في

رواية أخرى لكاتب مختلف، أن يكون اللّقب أو الاسم لشخصية رائدة في الأدب، أو أن يتميّز هذا الاسم الأوّل بأصالة. يمكننا التّفكير في شخصية "Vendredi" في رواية « روبنسون كروزو Robinson Crusoé » (1719) لـــ "دانييل ديفو Daniel Defoe" التي نجدها في رواية « Vendredi أو حدود المحيط الهادي Vendredi ou les limbes du Pacifique» (1972) لـــ "ميشيل تورنيي Michel Tournier".

ينبغي للعلامات أن تكون أكثر وضوحا، أو أن تكون كثيرة، لكي تنعقد قراءةٌ تناصّية. وبالإضافة إلى ذلك، إذا كان من الممكن أن يمنح القارئ شخصيةً أخرى بعضَ السِّمات الخاصّة بشخصية ما، فمن المحتمل أن يسند إليها كلّ ماضي شخصية التّناص قبل أن تشجّعه على ذلك علاماتٌ أخرى. وفي نهاية المطاف، لن يحتفظ القارئ بالتّأكيد في كلتا الحالتين إلاّ بما يبدو وثيقَ الصّلة بالموضوع أثناء القراءة. لا يؤكّد مثال لقب الشّخصيات بالتّأكيد، على كون القراءة التّناصّية الضّمنية يمكن أن ترتكز على علاماتٍ أكثر هشاشة، وأن تعُدّ نطاقا واسعا من العناصر من التّناص؛ بل على كون التّناصّية الضّمنية تسجّل نفسها – كذلك – بشكل مختلف إلى حدّ ما عن التّناصّية.

إذا كان من الممكن لبعض العلامات النّصّية أن تؤدّي في الواقع إلى قراءة تناصّية ما، فإنّ هذه العلامات نفسها يمكن أن تكون الأكثر قابلية لأن تؤدّي إلى قراءة تناصّية ضمنية. لا يكفي موضوع الانتحار لـــ "ماري – كلار بلاز Marie-Claire Blais" على سبيل المثال، والذي نجده في رواياتِ « نهايةِ الأحلام La fin des songes» (1950) لـــ "روبير إيلي Robert lie" و"دافيد ستيرن David Sterne" (1967) لوحده، لتأسيس قراءة تناصّية. يمكن للخوف من الشّيخوخة من جهته، والذي نجده في عدد من روايات "جاك بولين Jacques Poulin" أن يشكّل بالأحرى، نقطة الانطلاقِ لقراءةٍ تناصّية ضمنية بين « عينا ميستاسيني الزّرقاوَيْن Les yeux bleus de Mistassini» (2002) و « دورة الخريف La Tournée d'automne » (1993) لسبب كبير جدّا، وهو أنّ القارئ يحمل في ذاكرته رواياتٍ أخرى للكاتب، ويشعر بأنّه دون شكّ مسموح له بما أنّ النّصيْن يحملان

التّوقيع ذاته، أن يحاول منح "الخوف" في الرّواية الثّانية، الأسباب نفسها، والأحداث نفسها، والتّجسيدات نفسها التي لمسها في الرّواية السّابقة، ما دام النّص لا يُناقضها على الأقلّ.

قد يحاول القارئ أيضا التّنبؤَ بالموقف الذي يمكن للشّخصية الرّئيسية أن تتّخذه في مواجهة هذا الخوف: هل ستكون له الخيارات نفسها، أم سيؤثر نهجا مختلفا؟ تصبح هذه العناصر المتكرّرة التي تسهم في تطوير أسلوب المؤلّف، من التّناصّية الضّمنية حين تصادف المعايير المذكورة سابقاً في معرض التّناصّية.

يتّفق "مايكل ريفاتير" و"فولفغانغ إيزر" و"أمبيرتو إيكو" إذن مع شخصية « فولكسفاغن الزّرقاء Volkswagen Blues » للتّأكيد على أنّ القراءة التّناصّية تشكّل واجبا يتحتّم على القارئ القيام به. يرى القارئ الموجَّه عن كثب لإنجاز مهمته، بأنّ النّص فرض عليه حركات القراءة. تبدو معالِمُ مساراتِ القراءة أكثر أهمية لدرجة أنّ تناصّيا غير مسترجَع، يقود – حسب "ريفاتير" و"إيزر" – إلى قراءة غير مكتملة. يتعرّض القُرّاء الذين يعتمد عليهم تحليل المنظِّرين الثّلاثة بدورهم، لخطر قراءة عرجاء، ولكن بنسبة أقلّ، لأنّ الأمر يتعلّق إمّا بمجموع خبرات مجموعة من القرّاء وإمّا بالتّوتّر بين القارئ الحقيقي والدّور الذي اقترحه النّص، أو أيضا القارئ الذي كوّنه النّص نفسه.

لا زالت القراءة التّناصّية في نظريات التّلقّي، تعتمد بصفة كلّية تقريبا على النّص، وتعتبر نفسها طريقة ملزِمة في القراءة بوصفها شرطا لازما، وليست طريقة للقراءة الـــ"جيّدة". ويبدو أنّ هذه النّقاط المعتمدة من قِبل "ريفاتير" و"إيزر" و"إيكو" مشكوك فيها. بيد أنّه ينبغي ألاّ ننسى أنّهم من أوائل الذين درسوا القراءة بطريقة أكثر منهجية، سواء كانت تناصّية أم لا. وعموما، فإنّ بعض أفكارهم حول الـــتّناصّية تظلّ مضيئة تماما، وسمحت بالاهتمام بظاهرة التّناصّ بصورة مُرضية. وهكذا، وُجدت التّناصّية حين نُظِر إلى إشارة نصّية بوساطة قارئ يرى فيها أثرا لتناصّ متحوّل على المستوى الشّكلي أو الدّلالي، ويتورّط في قراءة نموذجية بين النّص وتناصّاته. قد ينطبق

هذا التّعريف نفسه على التّناصّية الضّمنية بخلاف بسيط، وهو أنّ التّناص أو التّناصات تحمل توقيع صاحب النّص المركزيِّ نفسه.

إذا كان يمكن أن نعرّف التّناصّية والتّناصّية الضّمنية بطريقة مماثلة، فلأنّهما يرتكزان على إشارات نصّية تختلف طريقة تسجيلها. ونظرا لقُرب التّناص في ذهن القارئ، فإنّ آثارا نصّية أقلّ عددا وأكثر ضمورا يمكن أن تضمن بسهولة قراءة تناصّية ضمنية أكثر من قراءة التّناص. يمكن أن تكون هذه الإشارات أيضاً ذات طبيعة مختلفة. إذا كانت الإشارات النّصية عادة ما تظهر في التّناصّية على شكلِ موضوعٍ أو شخصيةٍ أو موتيفٍ(4)، فيبدو أنّ هذه الأشكال نفسها هي التي تشكّل الآثار الرئيسية لتناصّية ضمنية كذلك.

لا زال هناك الكثير ليقال عن التّناصّية الضّمنية التي كانت حتى الآن موضوع القليل من الدّراسات. سيسمح تحليلٌ مقارن للتّناصّية والتّناصّية الضّمنية بتحديد أنواع العلاماتِ النصّية المفضّلة في هذه القراءة أو تلك من القراءتين المدروستين في إطار هذا التّحليل، وسواء كان ذلك عند كاتب معيّن أو ضمن مجموعةٍ. يكمن الفرق الرّئيسي بين هذين النّوعين من القراءة في كون التّناصّية تحثّ – بشكل أكبر – على العمل الفكري، في حين تسبّب التّناصّية الضّمنية سيطرة المشاعر المختلفة خصوصا، ويكون الشّعور الأساسي من بينها دون أدنى شكّ، هو متعة الألفة.

ها أنت إذن على استعداد للهجوم على الخطوط الأولى من الصّفحة الأولى. تتوقّع أن تجد نبرة اعتراف المؤلّف في هذا الكلّ. لا، أنت لا تجده. بعد كلّ ذلك، هل قال أحد يوما بأنّ هذا المؤلّف له نبرة اعتراف في أيّ من مؤلّفاته؟ نحن نعرف: إنّه مؤلّف يختلف كثيرا من كتاب إلى آخر. ولهذا ربّما، نتعرّف عليه بالتّأكيد. ولكن يبدو حقّا أنّ هذا الكتاب أعلاه لا علاقة له بجميع الكتب الأخرى، لدرجة أن تتذكّره، هل خاب أملك؟ لحظة.

إيطالو كالفينو: «لو أنّ مسافرا في ليلة ماطرة »

Italo Calvino, « Si par une nuit d'hiver un voyageur ».

**ملاحظات:**

من الواضح، أنّ هذه الجسور التي تمتدّ بين الأعمال ليست حكرا على المجال الأدبي وحده. يحدث لي في معظم الأحيان، حين أشاهد حصّة تلفزيونية، « The Simpson's» أن أشعر بالإحباط حين أرى أنّها تستعيد مشاهد مستمدّة من أفلام لا يمكنني تحديدها.

**هوامش التّرجمة:**

* يعرّف "ريفاتير" ( التّناص الضّمني )، بقوله: « والّتناصّ الضّمنيّ يتأثّر كثيراً بمرور الزّمن، وبالتغيّر الثّقافي، أو بعد اطّلاع القارئ على المجموعة الكاملة من كتابات النّخبة، التي تربّى عليها جيلٌ شعريّ خاص. لكنّ سيطرة النّصّ على القارئ لا تتقلّص حتّى عندما يكون المتناصّ معه قد طُمِسَ ». ينظر:

ريفاتير مايكل: سيميوطيقيا الشّعر، تر: محمد معتصم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرّباط، المغرب، ط1، ص: 227.

(1) الصّنافة: Taxinomie أو Taxonomie: علم تصنيف القوانين.

(2) اللاّنحوي: agrammaticalité، غير منطبق على قواعد النّحو.

Agrammatisme، حُبسة تركيبية، عيّ في تركيب الكلام، يؤدّي إلى اعتماد أسلوبٍ برقيٍّ في التّعبير.

(3) مفسّر كيفيّ: interprétant، مريض يذهب إلى تفسيرات مخطئة منطلقا من أحداث صحيحة.

* reminiscence: تنبّهُ النّفس بعد اتّصالها بالبدن إلى معارفها من حياة سابقة.

(4) الموتيف: Motif، هو أصغر وحدة دالّة في الموضوع.

**مراجع ببليوغرافية:**

ARON, P., D. SAINT-JACQUES et A. VIALA (dir.) [2002] : Le Dictionnaire du littéraire, Paris, PUF.

BLAIS, M.-C. [1967] : David Sterne, Montréal, Éd. du Jour.

DEFOE,D.[(1719) 1996]: Robinson Crusoé,Paris, Gallimard, coll. « Folio Classique ».

ECO, U. [1985] : Lector in fabula ou la coopération interprétative dans les textes narratifs, Paris, Grasset.

ELIE, R. [1950] : La Fin des songes, Montréal, Beauchemin.

FITCH, B. T. [1983]: « L'intra-intertextualité interlinguistique de Beckett; la problématique de la traduction de soi », Texte, nº 2, 85-100.

GENETTE, G. [1982] : Palimpsestes : la littérature au second degré, Paris, Seuil, coll. « Poétique ».

GENIN, C. [1997] : L'Expérience du lecteur dans les romans de Claude Simon : lecture studieuse et lecture poignante, Paris, Honoré Champion, coll. « Littérature de notre siècle ».

GORP, H. van et alii [2001] : Dictionnaire des termes littéraires, Paris, Honoré Champion, coll. « Dictionnaires et références ».

HOTTE, L. [2001] : Romans de la lecture, lecture du roman ; l'inscription de la lecture, Québec, Nota bene, coll. « Littérature ».

ISER, W. [1985] : L'Acte de lecture. Théorie de l'effet esthétique, Bruxelles, Mardaga, coll. « Philosophie et langage » ;

———— [1979]: « La fiction en effet », Poétique, nº 39, 275-298.

JENNY, L. [1976] : « La stratégie de la forme », Poétique, nº 27, 257-281.

JOUVE, V. [1993] : La Lecture, Paris, Hachette, coll. « Contours littéraires».

LAMONTAGNE, A. [1992] : Les Mots des autres. La poétique intertextuelle des oeuvres romanesques de Hubert Aquin, Sainte-Foy, Presses de l'Université Laval, coll. «Vie des
lettres québécoises ».

LIMAT-LETELLIER, N. et M. MIGUET-OLLAGNIER (dir.) [1998] : L'Intertextualité, Paris, Les Belles Lettres.

L'ITALIEN-SAVARD, I. [2003] : « Nouveautés ; roman », Québec français, nº 129, 24.

PENNAC, D. [1992] : Comme un roman, Paris, Gallimard, coll. « Folio ».

PIÉGAY-GROS, N. [1996] : Introduction à l'Intertextualité, Paris, Dunod.

POULIN, J. [1978] : Jimmy, Montréal, Leméac ;

———— [1988] : Volkswagen Blues, Montréal, Leméac, coll. « Babel » ;

———— [1993]: La Tournée d'automne, Montréal, Leméac ;

———— [2002]: Les Yeux bleus de Mistassini, Montréal/Arles, Leméac/Actes Sud.

RABAU, S. [2002] : L'Intertextualité, Paris, Flammarion, coll. « Corpus ».

RICARD, F. [1974] : « Jacques Poulin : de la douceur à la mort », Liberté, vol. 16, nº 54, 97-105.

RICARDOU, J. [1972] : « Penser la littérature aujourd'hui », Sud, nº 8, 32-46.

RICARDOU, J. (dir.) [1975] : Claude Simon. Analyse, théorie, Paris, Union générale d'éditions.

RIFFATERRE, M. [1979a] : La Production du texte, Paris, Seuil, coll.
« Poétique » ;

———— [1979b]: « Sémiotique intertextuelle : l'interprétant », Revue

d'esthétique, nº 1-2, 128-146 ;

———— [1979c]: « La syllepse intertextuelle », Poétique, nº 40, 496- 501 ;

———— [1980]: « La trace de l'intertexte », La Pensée, nº 215, 4-18 ;

———— [1981]: « L'intertexte inconnu », Littérature, nº 41, 4-7 ;

———— [1983]: Sémiotique de la poésie, Paris, Seuil, coll. « Poétique » ;

———— [1997]: « Contraintes intertextuelles », Texte(s) et intertexte(s), études réunies par E. Le Calvez et M.-C. Canova-Green, Amsterdam, Rodopi, 35-53.

SAINT-GELAIS, R. [1994] : Châteaux de pages. La fiction au risque de sa lecture, Lasalle, Hurtubise HMH, coll. « Brèches » ;

———— [1994]: « La lecture erratique », dans D. Saint-Jacques (dir.), L'Acte de lecture, Québec, Nuit blanche, 245-261.

THÉRIEN, G. [1990] : « Pour une sémiotique de la lecture », Protée, vol. 18, nº 2, 67-80.

TOURNIER, M. [1972] : Vendredi ou Les Limbes du Pacifique, Paris, Gallimard, coll. « Folio ».

VULTUR, S. [1986] : « La place de l'intertextualité dans les théories de la réception du texte littéraire », Cahiers roumains d'études littéraires, vol. 3, 103-109.

المقال مأخوذ من مجلّة:

Protée, vol. 33, n° 1, 2005, p. 93-102.